الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

الصّلاة حصن الشّخصيّة للحماية من الانهيار النّفسيّ والأخلاقيّ

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

تأمل معي المشاهد الآتية....

عندما ارتفع صوت الآذان من مئذنة المسجد المجاور، توقف أبو محمد عن إصلاح سيارته، ومسح عرق جبينه بيده المتسخة بزيت المحرك، ونظر إلى الساعة، وتوجه نحو صنبور الماء، وهمس لنفسه وهو يزيل آثار التعب عن وجهه:

"حان وقت لقاء اللّٰه".

في الشارع المجاور، أغلق سعد دفتر الحسابات، وأطفأ شاشة الحاسوب، وقام من مكتبه في المتجر الصغير، وترك عبارة :

"سبقتك للصلاة، فاتبعني".

وقدوتنا الرسول محمد صلى اللّٰه عليه وسلم إذ يقول لبلال:

"يا بلالُ، أقِمِ الصَّلاةَ، أرِحْنا بها".

وغيرها الكثير من مشاهد تنضوي على لقاء خاصّ مع اللّٰه، على الرّغم من كون المسلمين يصلّون جماعات وأفراد ، إلاّ أنّ لكلّ واحد منهم في صلاته لقاء خفيّاً بينه وبين اللّٰه، وهو لقاء متجدّد خمس مرات في اليوم، لقاء يوقف عجلة الحياة للحظات يقفون فيها بين يدي خالقهم.

إنّها الصلاة بما تحمله من طقس روحي عميق، فيه راحة بها لا منها، يتجاوز هذا الطقس كونه مجرد عبادة فردية، ليصبح ظاهرة اجتماعية متجذرة في نسيج المجتمع المسلم، تؤثر في إيقاع الحياة اليومية وتشكّل الهوية الجماعيّة، فالصلاة في جوهرها هي جسر التّواصل بين الإنسان وخالقه، وليست مجرد حركات نؤديها، أي لا يراد بها أن تكون عادة تُؤدى بشكل آلي دون حضور قلبي أو تدبّر حقيقي، وإنّما القصد أن تكون عبادة تحمل

معنى وهدفاً وتمثّل لحظة تأمل عميق واعتراف صادق ومناجاة خالصة، فهي السبيل الوحيد إنْ أردنا الحديث مع اللّٰه، وقراءة القرآن السبيل الوحيد إن أردنا أن نسمع ماذا يقول اللّٰه لنا.

ففي الصلاة سيطرة لوهج روحي يحمل قداسة لحظية تنقطع فيها الصلة مع ضجيج العالم المادي، وتتّصل الرّوح بخالقها، فالصلاة ليست مجرد طقس ديني منفصل عن الحياة، بل هي تجربة إنسانية شاملة تمس جوانب متعدّدة من الوجود البشري، ففيها تربية النفس على الانضباط، بتعلّم الالتزام بمواعيد محددة، والصبر، بالتعوّد على الثبات والاستمرارية في العبادة، والتركيز، لكونها تدريب للعقل على الحضور الذهني والبعد عن التشتت، والتوازن، لما تمنحه للنفس من فرصة للتوقف والتأمل في خضم الحياة المتسارعة، وإعادة ترتيب الأولويات، من خلال توجيه البوصلة الأخلاقية والروحية للإنسان.

ولا يقتصر أثرها على الفرد وحسب، وإنّما تطال المجتمع، وتؤثّر فيه، وتعلّمه الوحدة إذ إنّها تجمع المصلين على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم الاجتماعية والاقتصادية، والتكافل من خلال بناء التعارف والتواصل بين المصلين وتقوية الروابط الاجتماعية، والنظام بتعزيزها لقيمة الانضباط الجماعي، والمساواة والأخوة والتضامن من خلال الوقوف كصف واحد أمام اللّٰه.

فضلاً عن كونها تمثّل واحة من السكينة والطمأنينة وتؤثّر في الصحة النفسية و تساهم في تخفيف التوتر والقلق، وتنظيم الحياة وترتيب أولوياتها، والتجدد الروحي لما تمنحه من فرصة للتأمل والاسترخاء وإعادة شحن الطاقة الروحية، والتماسك الاجتماعي من خلال تعزيز الهوية الجماعية والترابط المجتمعي.

ووجود هذا التأثير من الصلاة في حياة الأفراد والمجتمعات، يجعلها تتجاوز بعدها الفردي لتصبح ظاهرة اجتماعية بارزة، تنعكس في العديد من مظاهر الحياة المجتمعية من خلال :

- انتشار المساجد، فبمآذنها الشامخة وقبابها المهيبة، تشكل معالم بارزة في النسيج العمراني للمدن والقرى، وتمثل مراكز إشعاع روحي وحضاري.
- تنظيم إيقاع الحياة: إذ تعمل أوقات الصلاة على تنظيم إيقاع الحياة اليومية، فتتوقّف الأعمال، وتغلق المحلات، ويتّجه الناس إلى المساجد.
- المناسبات الدينية الكبرى، ففي صلاة العيدين أو صلاة الجمعة، تتجلى القوة الاجتماعية للصلاة بوضوح أكبر، إذ تتحوّل إلى مناسبة جامعة للمجتمع.

ففي عالم مختلف عمّا عشناه نحن، وفي زمن يختلف عن الأزمنة السابقة، يختلف تأثير الصلاة في نفوس أبنائنا اليوم، فهم يعيشون في عالم مختلف تماماً عما عشناه نحن في طفولتنا، عالم تتنافس فيه وسائل الترفيه والإعلام والتكنولوجيا في الحصول على اهتمامهم وأوقاتهم.

وفي ظلّ هذا الواقع، تبرز إشكالية علاقة النشء بالصلاة وكيفية غرس قيمتها في نفوسهم لا كفرض تعبدي فحسب، بل كحاجة روحية وممارسة حياتية تسهم في تحقيق الأمن الفكريّ، وتعميق مفهوم المسؤولية الفردية لديهم.

وهنا يأتي دور مؤسسات التنشئة المجتمعية (الأسرة والمدرسة والمسجد ووسائل الإعلام) في تقديم الصلاة للأبناء بصورة محببة وعميقة، فالأسرة مطالبة بأنْ تكون قدوة عملية في المحافظة على الصلاة، والمدرسة مدعوة لتجاوز التلقين النظري للصلاة إلى تربية روحية تطبيقية متكاملة، والمسجد مسؤول عن استقطاب الأطفال والشباب ببرامج تفاعلية تجعل المسجد فضاء محبباً، ووسائل الإعلام والمنصات الرقميّة يمكنها تقديم محتوى إبداعي يقرب مفاهيم الصلاة وقيمها وأهميتها بلغة العصر.

إنّ تعليم أبنائنا قيمة الصلاة لا يكون بالإكراه أو الترهيب، بل بتوضيح غاياتها السامية وآثارها الإيجابية على الحياة النفسية والاجتماعية، وهذا يتطلب تضافر جهود المؤسسات التربوية بأكملها لإيجاد إستراتيجيات متكاملة تراعي خصائص العصر وتحدياته.

فمشاهد الوالدين وهما يؤديان الصلاة بخشوع، وأستاذ يشرح معاني الصلاة بأسلوب يلامس القلوب، وإمام مسجد يرحب بالأطفال ويشركهم في أنشطة المسجد، وبرامج إعلامية تقدّم نماذج شبابيّة ملهمة تجمع بين النجاح الدنيوي والالتزام بالصلاة، كلها عوامل تساهم في تكوين صورة إيجابية للصلاة في وجدان النشء، وتساعدهم على اكتشاف الصلاة كمصدر للقوة والسكينة، وليس كعبء يثقل كاهلهم أو واجب تقليدي لا يفهمون مغزاه.

وأهمّ ما يجب فعله لتعويد الأبناء على الصلاة، تحويلها من عادة إلى عبادة، من خلال توجيههم نحو خطوات عمليّة لأدائها:

فقد وجب تعليمهم معاني الصلاة بعمق، واستحضار عظمتها بدءاً بكلمة " اللّٰه أكبر" مروراً بالتفكّر والتدبّر في معنى "إياك نعبد وإياك نستعين"، وصولاً لفهم الصلاة كمناجاة وحديث مع اللّٰه، وأن يكونوا حاضرين نفسياًّ وجسدياًّ من خلال تهيئة النفس بمجرد سماع صوت الأذان، باستحضار عظمة من نقف بين يديه، والاستعداد الذهني للانتقال من مشاغل الدنيا إلى لحظة روحانية، وتجهيز البيئة المناسبة بتخصيص مكان هادئ للصلاة بعيداً عن المشتتات، وتهيئة المكان بما يساعد على الخشوع والتركيز، والتفكر في معاني الآيات والأذكار، واعتبار الصلاة كتجربة متكاملة يشترك فيها الجسد والعقل والروح، وربط الصلاة بالحياة من خلال استحضار توجيهاتها في معاملات الحياة اليومية، ونقل أثر الخشوع إلى بقية أعمال اليوم، ورؤية الصلاة كمصدر للقوة والطاقة الإيجابية في مواجهة تحديات الحياة، فإنّ صلاحها صلاح لسلوكيات المرء، وفيها درع يحميه من الوقوع في شبهات من الفحشاء والمنكر.

وفي عصر السّرعة والتّكنولوجيا الرقميّة، تواجه الصلاة تحدّيات جديدة تتمثّل بإيقاع الحياة المتسارع وضغوط العمل المتزايدة وضيق الوقت، والانشغال الرّقميّ الدّائم بوسائل التّواصل الاجتماعيّ والأجهزة الذكية، وتبعات العولمة التي تؤدي لحدوث تمازج ثقافيّ وانفتاح غير مسبوق أدّى إلى تساؤلات حول مكانة الشعائر الدينية، والتوّجهات العلمانيّة التي أدّت إلى تحييد الدين عن الفضاء العام في بعض المجتمعات، والتشكيك الفكري بظهور توجّهات فكريّة تشكّك في جدوى الممارسات الدينية.

وفي سبيل مواجهة هذه التحديات، تظهر إستراتيجيات متنوّعة للتّكيّف والمقاومة من مثل؛ ضرورة وجود مرونة في الممارسة من خلال تطبيقات إلكترونية للتذكير بمواقيت الصلاة وتحديد اتجاه القبلة، وتسهيل أداء العبادة من خلال انتشار المصليات في المؤسسات العامة والخاصة، وإحياء الروحانيات كردّ فعل على المادية المفرطة في العصر الحديث، وتجديد الخطاب الديني من خلال إبراز الأبعاد الروحية والإنسانية للصلاة، واستثمار التكنولوجيا من خلال نشر الوعي بأهمية الصلاة وتبسيط تعاليمها عبر وسائل التواصل الحديثة.

ARAB-PSF.COM

هي دقائق معدودة نقضيها في الصلاة، لكنها تكون كافية لتجديد الروح، وزرع وتيرة الاستمرارية والدأب الذي لاينثني في تطبيقها، ممّا ينعكس بشكل إيجابيّ على الفرد بتنشيط همته لمواجهة تحديات الحياة اليومية.

ففي عالم يتّسم بالتّغيّر المستمرّ والتحولات المتسارعة، تبقى الصلاة ثابتة راسخة في حياة الإنسان، تمنحهم السكينة والطمأنينة، وتذكّرهم بحقيقة وجودهم وغاية خلقهم، وهي، إلى جانب بعدها الروحي العميق، تمثّل ظاهرة اجتماعية متجذرة في نسيج المجتمع المسلم، وتسهم في تشكيل هويته وتعزيز تماسكه.

فمن هنا نطلقها مناشدة من القلب، لكلّ مستثمر أو واضع سياسة أو فاعل خير، ينخرط ببناء وتشييد مؤسسات تعليميّة من مدارس وجامعات بأنْ يخصّص مكاناً لبناء مسجد أو مصلّى للطلبة والكوادر التعليميّة والإداريّة، لربطهم بالصلاة لتأكيد أنّها تتجاوز مجرّد كونها طقساً دينياً منفصلاً عن الحياة، لتصبح جزءاً من يومهم الدراسيّ، ورحلة روحية متجددة يعايشونها يومياً، ومدرسة أخلاقية شاملة، ومصدراً للقوة والأمل في مواجهة تحديات الحياة، فتصبح لديهم قاعدة بحياتهم تصحبهم من مقولة "أرحنا منها" إلى "أرحنا بها"، وتنقلهم من مجرّد كونها عادة روتينية إلى عبادة واعية، ومن حركات جسدية إلى رحلة روحية تسمو بالإنسان فوق صخب الحياة المادية، وتربطه بخالقه وبمجتمعه في آن واحد.